إلى أين في معركة صراعنا، معركةِ الأرض والإنسان؟

رشاد أبو شاور*

أوسلو ـ البارحة واليوم

في آذار من العام ٩٤ نشرتْ مجلة الآداب البيروتيّة العريقة نصَّ نداءٍ وجَّهتُه إلى المثقفين من أبناء أمتي العربية. وممّا قلتُه في ذلك النداء: «إنّ مواجهة كامب دايڤيد تحتّم بالضرورة نقدَ الساداتيّة، التي ليست هي السادات كفرد.»

وقلتُ: «هذا الخراب لم يَهْبط على حياتنا الفلسطينيّة والعربيّة بالمصادفة. ولذا فلا بدّ من دراسة أسبابه... لنصلَ إلى استخلاصات جديّة تمكّننا من لفظ هذا الخراب، فلسطينيّاً وعربيّاً...»

وممّا قلتُه في ذلك النداء: «اتفاقُ أوسلو، والتوقيعُ في واشنطن، صفقةُ سوق. هذا ما أوصلوا قضيتَنا إليه! فهل هذه هي أهداف شعبنا؟ وهل بهذا تتحقق حريتُه وكرامتُه؟»

واختتمتُ ذلك النداء بالكلمات التالية: «فلنواصلْ، نحن المثقفين والمبدعين والمفكّرين العرب، في كلّ قطر من أقطار وطننا العربيّ الكبير، ملاحقةَ اتفاق أوسلو ـ واشنطن، والفكرِ السياسيّ الذي أَفْضى إليه، والمصالح والدوافع والارتباطاتِ، لأنّ هذا أخطر من كل ما تقدَّم، وأكثرُ ضراوة، وتزويرًا، وقبحًا.»

هذا ما كتبتُه قبل عقد من الزمن تقريبًا، عندما ارتفعتْ أصواتٌ لمثقفين يُفْترض أنهم يتمتّعون بدرجة عالية من الحصافة والخبرة والاطّلاع السياسيّ، تحضّ على الانخراط في عمليّة «السلام،» مبرِّرةً هذا الطرحَ بفقدان العرب لحليفهم الاتحاد السوڤيتيّ، الذي انهار، فمكَّنَ الولاياتِ المتحدةَ الأمريكيّةَ من الانتصار ومن الهيمنة على العالم. ولقد كان ممّا ساقه المتحمِّسون لأوسلو أنّهم إنما يَرْمون إلى إنقاذ الأرض، لأنّ اقتلاعَ المستوطنات، وحرمانَ الكيان الصهيونيّ من التوسُّع، وحصولَنا على دولة فلسطينيّة، كل ذلك سيكون حدثًا تاريخيّاً يُنهي معاناةَ شعبنا الفلسطينيّ ويثبِّتُهُ في أرضه!

لن نخوض في بنود اتفاق أوسلو، الذي يتلخّص في إنهاء الانتفاضة الفلسطينيّة الأولى (وهو ما حدث فعلاً)، وكسبِ الوقت لتدمير حياة الفلسطينيين، والاستحواذِ على الأرض في ظلّ عمليّة «سلام» تتمّ والعربُ في أدنى حالات ضعفهم، والفلسطينيُّون يفاوضون بدفعٍ من نُظُمِ حُكْمٍ همُّها التخلُّصُ من القضيّة الفلسطينيّة للتفرغ للحفاظ على امتيازاتها، وذلك بتقديم المزيد من الولاء والطاعة للولايات المتحدة الأمريكيّة، والفوزِ بالرضى الإسرائيليّ.

لم نشاركْ مَنْ روّجوا لحالة الانكسار آراءَهم، ومبرِّراتِهم، التي استظلّوا بها وهم يندفعون إلى هاوية التفاوض مع عدوٍّ خبيثٍ مستقوٍ بالدعم الأمريكيّ المطلق. ولقد رأينا أنه بمقدور شعبنا الفلسطينيّ أن يحصل على ما هو أفضل بكثير من اتفاق أوسلو.

ومع ذلك، وحتى لا نَضيعَ في مناقشة أوسلو نظريّاً، فإننا ندعو إلى رؤية أوسلو على أرض الواقع، على الأرض الفلسطينيّة التي تَقْتلع الجرّافاتُ أشجارَ حقولها، وتجتاحها شاقّةً طرقًا التفافيّةً للمستوطنات التي لم يتوقف بناؤها رغم وعود أوسلو، ورغم زفِّ بشائرِ ولادةِ شرق أوسط جديد، بحسب شمعون پيريس، العمّالي، وزيرِ خارجيّة شارون الحاليّ، ومجرم قانا، وصاحبِ الدور المشهود في تمكين «إسرائيل» من امتلاك مُفاعل ديمونا النوويّ الذي سلّح الكيانَ العدوانيَّ بأكثر من مئتيْ رأس نوويّ مسلَّطٍ على المدن العربية، مشرقيّةً ومغربيّةً.

لقد ضاعت الأرضُ بعد أوسلو، أيْ بعد إعلان السلطة الفلسطينيّة، وبعد افتتاح مكاتب وسفارات لـ «إسرائيل» ورفرفةِ علمها في سماء عواصم عربيّة عريقة. وما لم تكن دولةُ العدوّ قادرةً على تحقيقه في زمن الانتفاضة، حقّقته في زمن «السلام.»

الأرض هي التميمة

منذ بداية هذا الصراع مع عدوّنا، في نهايات القرن التاسع عشر، كان العنوانُ يُختصر بكلمة واحدة: «الأرض.» فالصهيونية التي تسللتْ إلى وطننا ادعّت أنّ فلسطين أرضٌ بلا شعب، وأنّ اليهود شعبٌ بلا أرض. وهكذا التقت الأسطورةُ التوراتيّةُ بوعد اللّه (الذي يخصّهم وحدهم) بالأكاذيب الدعاويّة المستندة إلى دعم غربيّ، بريطانيّ بخاصة.

* ـ روائيّ وقصّاص ومناضل فلسطينيّ.

وبالتعاون مع الاستعمار البريطانيّ الذي اجتاح فلسطين عقب انهيار الرجل المريض تركيا، ومع اندفاع قوات الجنرال أللّنبي، كان وعدُ بلفور ـ لا وعدُ الرب ـ قد انتقل نقلةً جديدةً، محمولاً بقوّة بريطانيا ومتسلّلاً برعايتها، الأمرُ الذي أدّى إلى أن يهبّ الشعبُ الفلسطينيّ وينتفض. وإلى هذا الشعب وَفَدَ ثوارٌ عربٌ، منهم الشيخ عزّ الدين القسّام، وسعيد العاص، والألوفُ من المناضلين والمجاهدين العرب الذين رَأَوا بثاقب فكرهم أنّ فلسطين هي أرضُ المعركة الإستراتيجيّة مع معسكر العداء من صهاينة وإنكليز وفرنسيّين.

«الأرض» هي الكلمة المقدّسة التي تَخْتصر الصراع. وهي الكلمة المفْعمة بالدم والتضحيات والبطولة وروح الفداء على امتداد القرن العشرين. وها نحن نمضي في القرن الحادي والعشرين، الذي تريده أمريكا قرنًا أمريكيّاً، ويريده العربيُّ الفلسطينيُّ قرنًا لحريّته، ولسيادته على أرضه، ولهزيمة المشروع الصهيونيّ العاجز عن بسط هيمنته رغم كل ما يُضخّ في عروقه من دعم ماليّ وعسكريّ وسياسيّ وديبلوماسيّ، ورغم كل عوامل التفكك العربيّة.

كان رهانُ عدوّنا الدائم هو أنّ الفلسطينيّين الذين يُولَدون في المنافي سينسَوْن فلسطينَ بعد موت الآباء وسيذوبون، وأنّ الفلسطينيّين الذي بقُوا تحت الاحتلال سيتلاشَوْن وسيتمّ تدميرُهم وإخضاعُهم. فماذا حدث؟

الفلسطينيّون تحت الاحتلال تضاعَفَ عددُهم مرّات، حتى إنّهم نيّفوا على المليون، في حين كان عددُهم ١٥٠ ألفًا عام ١٩٤٨. والفلسطينيُّون في المنافي لم ينسَوْا ولم يذوبوا، وقاوموا مشاريعَ التوطين في سيناء عام ٥٥، ومشاريعَ تهجيرهم إلى كندا، وأستراليا ومشاريعَ توطينهم في قرًى تُبنى خصّيصًا لهم في الضفّة الشرقيّة من الأردن وفي الضفة الفلسطينيّة نفسها. لقد تشبّثوا بالمخيّم، وكان شعارُهم الضمنيُّ والمعلن: من هنا، من تحت الخيام، إلى فلسطين.

من المخيَّم تفجّرت الثورةُ الفلسطينيّةُ المعاصرة في العام ٦٥، ومن المخيّم ـ مخيّم جباليا ـ تفجَّرت الانتفاضةُ الكبرى عام ٨٧. وفي المخيّم تدور الآن معركةُ مصيرٍ بين الدم الفلسطينيّ والمدفع والطائرة والصاروخ الإسرائيليّ.

والمعركة عنوانُها الأرض. وبطلُها الإنسانُ الفلسطينيُّ العنيد، الذي لا يُهزم لأنّه ابنُ الأرض، وحافظُ أسرارها، والضاربُ جذورَه فيها.

الفلسطينيُّون الذين أراد لهم العدوُّ الصهيونيُّ أن يركعوا له، وتنمسحَ ثقافتُهم وهويّتُهم، ويرضَوْا بالتحول إلى غرباء في أرضهم، كما لو أنهم الهنود الحمر في المعازل التي حشرهم فيها الرجلُ الأبيضُ الأمريكيُّ، هؤلاء الفلسطينيُّون هم أبطال الأرض وأبناؤها وحماتها.

لم ترهبهم المجازر. وتحمّلوا السجون، وسياسةَ التمييز العنصريّ. وصمدوا في الجليل والمثلّث وحيفا والرمله واللدّ وعكّا الشريفة، وعلى اسم «الأرض» ساروا، متّخذين منها التميمةَ التي تصون ذاكرةَ الأجيال الطالعة، والقوةَ التي توحّدهم، والعنوانَ الذي يُعلونه ويَمْشون تحتَه مرفوعي الرؤوس.

وفي ٢٠٠٠/٩/٢٨ فجّر شعبُنا الفلسطينيُّ انتفاضةَ الأقصى، التي كانت ستتفجَّر سواءٌ دنَّس المجرم شارون المسجدَ الأقصى أم استجاب للنصح بالامتناع عن الزيارة. فلقد استفحلتْ سياسةُ مصادرة الأرض الفلسطينيّة، حتى صارت فلسطينُ أشبهَ ببساطٍ يُطْوى من تحت أقدام شعبنا. ولقد أراد قادةُ الكيان الصهيونيّ للسلطة الفلسطينيّة أن تتحوّل إلى آلة لقمع المجاهدين والمناضلين، تمامًا كما كان سعد حداد وجماعتُه العملاءُ يفعلون في جنوب لبنان. غير أنّ شعبنا بخبراته لم يستجب لمؤامرةِ استدراجه إلى حرب أهلية ومضى لمواجهة عدوه.

انتفاضة الأقصى هي انتفاضةُ تصحيحٍ لمسار أوسلو، وتغييرٍ للواقع الذي نجم عنه. والهدف من هذه الانتفاضة المباركة: دولةٌ فلسطينيّةٌ كاملةُ السيادة، عاصمتُها القدسُ الشريف، مع ضمان حقّ العودة للاجئين الفلسطينيّين.

حقّ العودة

إنّ حقّ العودة حقّ مقدّس، وشرعيّ، وقانونيّ، وممكن. فهو مقدّس لأنّه حقّ شعبنا في أرضه. وهو شرعيّ لأنّ الشرعيّة الدوليّة بحسب القرار ١٩٤ أقرّته. وهو قانونيّ لأنّه ينسجم مع القانون الدوليّ الذي يَضْمن حقوقَ البشر في أرضهم وحياتَهم الكريمة في أوطانهم. وهو ممكن كما كتب الدكتور سلمان أبو ستّة، الذي أثْبت بالوثائق والأرقام أنّ القرى الفلسطينية التي دُمّرتْ عام ٤٨ فارغةٌ تمامًا من اليهود، وأنّ اليهود يتجمعون في المدن لأنّهم ليسوا أبناء الأرض وهم يَسْتقدمون شغيلةً زراعيّين من الفلبين وتايلاند وبعضِ دول أوروبا الشرقيّة ليشتغلوا لهم.

أُذكّر بحملة الهجرة التي نظّمها الكيانُ العنصريّ الصهيونيّ عام ١٩٩٠ مستغلاً انهيارَ الاتحاد السوفييتيّ، بحيث تمّ شحنُ حوالى مليون شخص، فيهم اليهوديُّ، والمسيحيُّ الأورثوذوكسيّ الهاربُ من المجاعة، والباحثُ عن مكاسب للعيش أفضل. وأذكّر بأنّ شارون قبل فترة بسيطة أعْلن أنه بصدد التوجه إلى الأرجنتين لإقناع اليهود بالهجرة. فماذا يعني ذلك ؟ يعني أنّ الأرض الفلسطينيّة تتسع لأصحابها، الذين مازالت بيوتُهم وقراهم وحقولُهم تنتظرهم. فالأجدرُ، والأعدلُ، والأكثرُ واقعيّةً أن ينتقل فلسطينيّو الشتات إلى دُورهم وأرضهم.

في الشهور الأخيرة صدرتْ تصريحاتٌ من مسؤولين فلسطينيين، وبخاصةٍ من حامل ملفّ القدس بعد رحيل المناضل فيصل الحسيني، يقول فيها بعدم واقعيّة المطالبة بحقّ العودة. ترى: كيف تتّسع فلسطين لليهود والأورثوذوكس السوفييت، والفلاشا، وتَفْتح أبوابَها ليهود الأرجنتين وغيرهم.. ولا تتّسع لأصحابها الشرعيّين؟

أُنبّه إلى أنّ حقّ العودة هو حقّ فرديّ لكل فلسطينيّ، ولا يحقّ لأيّ فرد أو جهة أو دولة أن تنوب عن الفلسطينيّين بالتنازل عن

هذا الحقّ، الذي يتوارثه الفلسطينيون أبًا عن جدّ إلى يوم العودة.

إنّ المخيّمات الفلسطينيّة، من جباليا والشاطئ، إلى الفوّار، والدهيشه، وبلاطه، وجنين، وعايده، والعزّة، والأمعري، وعقبة جبر، وعين السلطان، وعين الحلوة، والميّة وميّة، والبارد، والبدّاوي، وشاتيلا، واليرموك، والنيرب، وعشرات غيرها، تخوض اليوم معركةَ العودة التي هي حقّ مقدّس، والتي هي معركةُ الأرض التي يتشبّث بها الفلسطينيُّ تحت الاحتلال، ويَقْبض على جمرة الإيمان بها كلُّ فلسطينيّ حيثما كان وحيثما شاءت له الأقدارُ أن يكون في بلاد الغربة التي لا تنسيه حقَّه في العيش الحرّ الكريم. ومن داخل فلسطين ١٩٤٨ كانت الاستجابة السريعة لنداء الأرض والحريّة. وفي غضون ساعات أعطى فلسطينيّو الداخل ثلاثة عشر شهيدًا، مبرهنين أنّ الشعب الفلسطينيّ هو شعب واحد، وأنّ معركته هي معركة واحدة، وأنّ مصيره واحد، وأنّه لن يرضى بأن يمزّقَ ويحوَّلَ إلى شعوب وأقليّات يتم تذويبُها في الكيانات الإقليميّة العربيّة المحيطة بفلسطين والمتواطئة مع العدوان، والتي تُغْلق الحدودَ في وجه الفلسطينيّ ليتمكّن العدوُّ الصهيونيُّ من الاستفراد بالفلسطينيّين في فلسطين.

فلسطين والأنظمة

الإنسان الفلسطينيّ يقلب اليوم موازينَ القوّة. فهو بقليل من السلاح، وبكثير من العزيمة والإيمان، يوجّه اللطمات المزعزعة لعدوّ متجبّر مستقوٍ بما بين يديه من أسلحة متطورة تَحْقنه بها الولاياتُ المتحدةُ الأمريكيّة ـ عدوُّ العرب رقم واحد.

نساؤنا يلدن عند حواجز جيش العدوّ، وتحت نظراته الحقيرة.

أطفالنا يُقتلون، وتمزَّق الكتبُ والدفاتر بين أيديهم. ينزفون دماءَهم الطاهرة. تُسرق طفولتهم. ولكنهم يصمدون، وهم يرفعون صور محمد الدرّة وإيمان حجو. ويمضون إلى وطن بلا موت، وأرضٍ مزروعةٍ بأشجار الزيتون، وسماءٍ بلا طائرات، وبحرٍ بلا زوارق حربيّة.

محاربونا الشباب يَحْمل واحدُهم رفيقَه أو أخاه، وهو يَهْتف باسم فلسطين. يمضي الشهيد وفي عينيْه حبّاتٌ من تراب فلسطين، وفي يده حجرٌ يقابل به ربَّه يومَ الحساب؛ فحجرُه هو كتابُه الذي في يمينه!

أُمّهاتُنا يودِّعن أبناءهنّ إلى الميدان. فأمّ محمد تتوِّج رأسَها بـ «لا إله إلاّ اللّه محمد رسول الله.» والشّابة إيمان إدريس تَنْسف جسدَها في العدوّ، ليزفَّها فجرُ فلسطين مجدًا، وفتوةً، وكرامةً تُحْرج جنرالات العربِ المغطّاةِ صدورُهم بأوسمةِ معاركَ لم يخوضوها إلاّ من أجل ذبح الجماهير.

هذه فلسطين قضيَّةُ قضايا العرب، سؤالُ وجودهم ومستقبلهم. إنّها القضيّة التي قزّمتها نظمُ الحكم العربيّة إلى مسألةٍ تخصّ الفلسطينيين وحدهم لتدفع بهم، ولسانُ حالها يقول «اذهبوا أنتم وربُّكم فقاتلوا إنا ها هنا قاعدون.»

نُظُم حكمٍ في أحسن الأحوال تدّعي الوساطة، وتَنْصح بالتوسل لأمريكا، وتتواطأ، وفي سماء عواصمها ترفرف راياتُ «إسرائيل.»

نُظُم حكمٍ تَترك الشعبَ الفلسطينيَّ، العربيَّ بامتيازٍ نضاليٍّ جهاديّ، جائعًا، مقاتلاً بجزء من قوّته، لأنّ خمسة ملايين ينتشرون في الأقطار المحيطة بفلسطين مقيدين، مراقَبين، محاصَرين في مخيّماتهم، حتى إنّهم ممنوعون أحيانًا من التظاهر: فدمُهم يسيل إنْ تظاهروا، وفي السجون يُزجُّ بهم إنْ رَفَعوا أصواتَهم بنداء فلسطين.

قضيّتنا هي الحق بعينه

في ختام ندائي في مجلة الآداب قلتُ: «إنّنا لن نغيّر ونبدّلَ إيمانَنا بوطننا لمجرد أنّ نفرًا منّا أصابه التعب، أو لأنّ قوّةً عاتية تملك أسبابَ التفوّق الماديّ والعسكريّ علينا. فالوطن باقٍ، والحرية قيمة إنسانيّة خالدة. وما هو طارئ لا بدّ أن يزول ويندحر ويبوء بالخسران، ومعه مَنْ يروّجون لجبروته!»

ثمّ أعود، بعد عقد من الزمن تقريبًا، للتأكيد على جوهر هذه الأفكار. فقضيّتنا هي الحقُّ بعينه، وإنسانُنا العربيّ الفلسطينيّ صلْب ومجرَّب. وهاهو في قلب الميدان، يواصل الفداءَ، من أجل الأرض، وحريتها، والعيشِ بكرامة في فلسطين العربيّة الحرّة.

عمّان